الوضع الصحي العام في الجزائر قبيل الثورة
- بين الإحصائيات الفرنسية الرسمية والواقع التاريخي -
د/ لعوج لصرالدين جامعة سيدي بلعباس

يفاجأ الباحث في أرشيف حكومة الإقامة العامة الفرنسية الاستعمارية في الجزائر من جهة بالكم الهائل لمجلدات حوليات الإحصاء السنوية التي تصدرها مصالح الإحصاءات في مختلف مجالات الحياة العامة ومنها خاصة الميدان الصحي، وينبهر من جهة أخرى بتنظيمها وترتيبها وتنوعها من حيث تطور معطياتها، وحساب معدلاتها ونسبها ومتوسطاتها العامة، وشموليتها لمختلف الميادين الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، مما يجعلها مصادر أساسية لدراسة الأوضاع العامة للجزائر، ومنها الوضع الصحي – موضوع الدراسة- حيث وقع اختياري على الجزء السابع الخاص بالوضع العام للجزائر سنة 1954م :

Gouvernement général de l'Algérie; Direction générale des Finances – Service de Statistiques Générale – Annuaire statistique de l'Algérie; septième volume; Alger 1954.

والذي يقدم معطيات إحصائية للعشرية السابقة (1945-1954م)، بهدف تغني الإدارة الاستعمارية بالتزايد السريع للإحصائيات – غير منتبهة بأنها مرحلة الهدوء الذي يسبق العاصفة –

والإشكالية التي تطرحها هذه الحوليات الإحصائية الفرنسية هي مدى مطابقة المعطيات الرقمية التي أصدرتها إدارة الصحة العامة في الجزائر مع الواقع الجزائري المعاش؟ وإلى أي حد يمكن التباهي بها؟ وهل استفاد منها الجزائريون؟ ولماذا؟ وما هي أهداف فرنسا منها؟

يصطدم التأريخ للواقع الصحي في الجزائر خاصة، وتأريخ الثورة الجزائرية عامة منهجيا بمسألة النزعة التدميرية للتأريخ تحت تأثير أهواء إيديولوجية متنوعة المشارب، منها الاستعمارية العنصرية، ومنها الدفاعية الذاتية التمجيدية والتبريرية للتاريخ، وهو ما أفرز مغالطات في حقيقة الإحصائيات سواء منها الرسمية (1) أو الفردية(2) ، حيث أثرت هذه الإحصائيات مثلا على المؤرخ الإنجليزي " أليستر هورن " فاسترسل في الإشادة وتمجيد ما حققته فرنسا في الجزائر من منجزات بقوله:

«..شبكة الطرقات والسكك الحديدية والمطارات والمدن الكبرى والموانئ إلى جانب الغاز والكهرباء والمواصلات السلكية واللاسلكية والمنشآت الصحية والخدمات الطبية المتعددة.» (3).

ولهذا لا يجب فقط تخليص التاريخ من الاستعمار، بل أصبح المنهج التاريخي المقارن النقدي الذي يحرص على النقد الذاتي البناء للواقع أكثر من ضرورة في البحث التاريخي المعاصر(4).

فكيف كان الواقع الجزائري؟

لا يمكن تاريخيا فهم أصول الثورة الجزائرية دون الوقوف على الأوضاع العامة الاقتصادية والاجتماعية التي كان يعيشها الجزائريون خلال العشر سنوات الغامضة التي سبقت اندلاعها

(1945-1954م)، فسياسة الاغتصاب والاستغلال والمصادرة والاستحواذ على موارد الجزائريين الزراعية والصناعية حولت شرائح المجتمع برمته إلى أدوات مسخرة لخدمة الاقتصاد الرأسمالي المنهار غداة الحرب العالمية الثانية، من خلال تحالف أقلية عنصرية من المستوطنين الجشعين، مدعمين من قبل مجموعة من الشركات والمؤسسات المالية الفرنسية والعالمية، إلى درجة أن أربعة وعشرين شركة فرنسية اعترفت بارتفاع أرباحها من (468 مليون فرنك فرنسي قديم سنة 1947م إلى 7155 مليون فرنك قديم) سنة 1954م (5)، والغريب أنه تم كل هذا النهب تحت إشراف إدارة تملك كل وسائل القمع والقهر لتنفيذ رغباتها وحماية امتيازاتها – ولو على حساب إفقار وتجويع وإبادة الجزائريين- الأمر الذي انعكس سلبا على تدهور الحالة الصحية العامة للجزائر، دفعت المؤرخ الجزائري " بوعزيز يحيى " – رحمه الله- ينفعل ويصرح دون تحديد مصادره قائلا:

«. حالة يرثى لها في أحوال السكان الصحية، فكثرت الأمراض والأوبئة وانتشرت الوفيات بشكل خطير جدا، بحيث ارتفعت مثلا بين عامي (1945-1954م) إلى أكثر من 30‰...» (6).

وتمثل الصحة –كما هو معلوم عبر التاريخ – مؤشرا من أهم المؤشرات وأكثر مقاييس حالة الدولة كمرآة تعكس واقع التخطيط الاجتماعي والاقتصادي أو الثقافي والحضاري عموما، لكن في حالة الجزائر بين (1945-1954م) فالأمر معقد لأن التناقض كان صارخا بين تقديرات إدارة الصحة العامة والكتابات التي اعتمدت عليها وبالغت في تمجيدها، وبين معظم الدراسات الاجتماعية التي أجمعت على الواقع المأساوي للسكان الجزائريين المسلمين، واستنتجت مختلف هذه الدراسات حقيقة رمزية هذه الإحصائيات الرسمية التي ليس لها أي علاقة مباشرة بالسكان الجزائريين المسلمين، بل تمثل صورة مباشرة للسكان ذوي الأصول الأوروبية(7).

إذا حاولنا – من جهتنا- قراءة هذه الأرقام حول الصحة العامة في الجزائر بين (1945-1954م) من خلال حوليات الإحصائيات التي قدمتها مصالح الصحة في الحكومة العامة الفرنسية بالجزائر – المجلد السابع كأنموذج- (8). والتي تبهر المطلع عليها بحسن تنظيمها وترتيبها وتنوع مجالاتها، نلاحظ أنها عموما تعكس فعلا تطورا تصاعديا، وهو ما جعل الإدارة الفرنسية تتباهى بتحسنها وتطورها الكبيرين على أساس حساب تزايد عدد الأطباء حيث ارتفع عددهم من 1033 طبيب سنة 1939م إلى 1356 طبيب سنة 1946م إلى 1629 طبيب سنة 1952م ليصل عددهم إلى 1646 طبيب سنة 1954م، ومن خلال تحسن البنية التحتية للقطاع الصحي التي سجلت عشية 1954/12/31م الأرقام التالية:

(12) مستشفى عسكري و (118) مستشفى عام عمومي و (16) مستشفى متخصص

و(10) عيادات خاصة، بينما ارتفع عدد الأسرة إلى 24080 سرير، ومعالجة مجموع 17929 مريض في كل القطر الجزائري، بالإضافة إلى إيواء 2420 مسن في دور العجزة (9)، والافتخار بدور السلطة الفرنسية في مختلف الخدمات الصحية وخاصة فيما يتعلق بالوقاية من الأوبئة والأمراض بتوسيع عمليات التلقيح خصوصا ضد الوباء المعدي والأكثر تفشيا " التيفيس Typhus"، وتخصيص منح عائلية (10).

فهل يجوز للمؤرخ الموضوعي التباهي بهذه الإحصائيات ؟ وكيف يمكن تفسيرها والاستفادة منها؟

لا يمكن أن ينخدع المطلع بارتفاع هذه الإحصائيات الرسمية إلا إذا قارنها بحقيقة الواقع الميداني، لاستنتاج العلاقة بينها وبين مدى استفادة مجموع السكان منها، بحيث أجمعت كل الدراسات الأجنبية والمحلية – رغم اختلافها في التعليل - عن عدم استفادة الجزائريين المسلمين منها.

كما لا يمكن أن يعللها الدارس فقط بعزوف ونفور الشعب الجزائري عن الاستفادة منها نتيجة:

- ✓ رفض الشعب الجزائري للطب الاستعماري فقط – كما ذهبت باحثة فرنسية التزمت كثيرا من الموضوعية في تعاملها مع تاريخ الجزائر- (11)،
- ✓ دعوى حرص المستعمر على الإبقاء على جزء قليل فقط من الشعب الجزائري في حالة صحية عادية تمكنه من الاستفادة منه وتسخيره في خدمته للعمل لصالحه وخوفا من انتقال عدواها فقط – كما ذهب المفكر الفرنسي " جون بول سارتر"(12) .
- ✓ تمسك الشعب الجزائري بوجوده الوطني ضد العمل الطبي الاستعماري، وردود فعله الثورية ضد كل مقومات النظام الاستعماري، بعدما فقد كل ثقة وسيطر عليه الشك إلى درجة اليقين من لا إنسانية الطبيب المسيطر، وبدأ يتصرف إزاء مختلف القطاعات الاستعمارية تصرفا عنيفا مرددا عبارات الرفض بشعار:

« لم يطلب أحد منا شيئا منكم، فمن ذا الذي دعاكم؟ خذوا مستشفياتكم وتجهيزاتكم في المرافئ وعودوا إلى بلادكم» - كما ذهب المفكر والطبيب فرانز فانون - (13).

- ✓ أسباب حضارية كما أكد المؤرخ الجزائري " الزبيري محمد العربي " قائلا: (14).

«.. مرتبطة بإيمان الجزائريين المسلمين بفعالية الطرق التقليدية مثل استعمال العشب باختلاف أنواعه وسائر الحبوب النشوية واللجوء في كثير من الأحيان إلى الرقيا والنار والتمائم أكثر من إيمانهم بالطب الحديث... ».

- ✓ أم لأسباب دينية فكرية مرتبطة بإيمان سكان الريف الجزائري بالقدرية – كما أكد بوعزيز يحيى قائلا:

«.. كل مريض ينتظر الموت حتى يأخذه إلى ربه، أو يرزقه الله الشفاء من عنده... »(15)

نعتقد أنها أسباب مكملة ومساعدة، بينما يجب البحث عن أسبابها الحقيقية – كما أجمعت مجمل الدراسات المعاصرة حول السياسة الاجتماعية الاستعمارية- (16) في أهداف النظام الصحي الاستعماري الفرنسي في الجزائر من خلال دراسة توزيعها الاجتماعي والجغرافي، بحيث تظهر أنها كانت فعلا سياسة استعمارية عنصرية موجهة لخدمة الأقلية الأوروبية أساسا، ناهيك عن الأهداف الدعائية من وراء هذه الإحصائيات، وما كان – ولا يزال- يعانيه علم الإحصاء من تناقضات منها المقصودة والهادفة، ومنها العفوية التي تتحكم فيها عوامل ثقافية واقتصادية وأحيانا كثيرة بأبعاد حضارية – كما هو حال الجزائر في ظل نظام استعماري استيطاني جائر –

وللاستدلال على التناقض الموجود بين الواقع المعاش وحقيقة هذه الإحصائيات والتقديرات الرسمية، معتمدا على منهج إحصائي نقدي مقارن، نستشهد هنا بهذا الجدول الفرنسي الرسمي الذي يقارن بين أكبر الحواضر الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ممثلة في عمالتي الجزائر ووهران مقارنة مع بقية مناطق الجزائر العميقة، مميزا بين المسلمين والأوروبيين من حيث توزيع أعداد الطاقم الطبي مقارنة بمجموع السكان (15):

	الأعـــداد سـنـة 1952م				مجموع السكان	
العمالات	طبيب	صـ يدلي	طبيب أسنان	قابلة	مسلمين	أوربيين
الجزائر ووهران	958	318	260	310	817200	518300
بقية الجزائر	808	296	176	253	7861800	404000

من خلال استقراء هذه الأرقام نستنتج نسبة توزيع (01) طبيب لكل 1400 ساكن في المدن الكبرى حيث تسكن أغلبية أوروبية مقابل (01) طبيب لكل (10 ألف نسمة) تصل إلى (30 ألف نسمة) في الجنوب (16)، مما يعكس النقص الفادح لعدد الأطباء، واللامساواة المكشوفة، فالمناطق التي تعيش فيها الأقلية الأوروبية هي المحظوظة (17).

وأكدت دراسة طبية متخصصة سنة 1953 م حول أمراض الصدر في الجزائر بين سنوات (1947-1953 م) أن معدلها تضاعف ثلاث إلى أربع مرات عند الجزائريين مقارنة مع الأوروبيين (18) ، وأن مرض الصدر كان هو الداء الأول بين الجزائريين بنسبة 25 ٪ من مجموع الأطفال الجزائريين الذين تتراوح أعمارهم بين (0-15 سنة) في عمالة وهران و نسبة 23.4 ٪ في عمالة الجزائر فيما بين سنتي (1953-1954م) (19).

وكما هو ثابت طبيا أن تفشي أمراض الصدر أو الالتهاب الرئوي انعكاس مباشر للحالة الاقتصادية والاجتماعية العامة المرتبطة بظروف العيش والسكن وانعدام التدفئة وطبيعة مياه الشرب، (20) خاصة وأن ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية ، خاصة بعد حمامات الدم التي اقترفتها يد الإجرام الاستعماري ضد شعب أعزل خرج منخدعا لمشاركة الحلفاء عيد النصر العالمي (21) وما تلاها من إجراءات تعسفية للسلطات الاستعمارية ساهمت جميعها في توسع انتشار الأوبئة واتساع سوء التغذية إلى درجة انتشار المجاعة في بعض المناطق التي أثرت كثيرا على السكان الأصليين (22) حيث أحصت التقديرات ما يلي:

سجل وباء الحمى سنة 1954م إصابة 15920 حالة مسجلة، وارتفاع مذهل بعد سنة 1946 للحالات المسجلة في مرض الجذري variole، وارتفاع نسبة وفيات الأطفال إلى 175‰ سنة 1954م، في الوقت الذي سجل 36 ‰ بين السكان الأوربيين، وتجاوز عدد يتامى الأبوين في أطفال المسلمين 1958 حالة مسجلة سنة 1954م، فالبؤس وسوء التغذية والجهل كان حظ هؤلاء

الأطفال كما يوضحه الجدول المقارن التالي لعدد وفيات أطفال الجزائريين المسلمين مقارنة مع الأطفال الأوروبيين حسب العمالات سنة 1948م: (22)

العمالة	الجزائر	قسنطينة	وهران	مجموع الجزائر
الجزائريون المسلمون	3647	4395	2851	10893
الأوروبيون المستوطنون	118	241	132	491

مهما ساهمت التقلبات المناخية وما ترتب عنها من توالي سنوات الجفاف أو الفيضانات مما هدد السكان بالمجاعات والتشرد، فإن دراسة مقارنة بين السكان الأصليين والأوروبيين من جهة وبين مقاطعات الساحل والمناطق الداخلية تعكس مما لا يدع للشك الصورة الحقيقية للاستعمار الاستيطاني بالجزائر، الذي كان وراء كل هذه الجرائم، وتتضح مسؤولية السياسة الاجتماعية الفرنسية خاصة في تدهور الوضع الصحي العام(23)، وتعكس إلى حد كبير البعد العنصري للاستعمار الفرنسي عامة، ومنظومته الصحية التي لم تستجب سوى لتلبية حاجيات السياسة الاستيطانية التي ركز عليها الاستعمار الفرنسي من أجل بسط هيمنته على الجزائريين المسلمين.

وساهمت هذه الوظيفة الصحية في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية في تعقيد الظروف العامة، وتعميم صور الاستياء واليأس والغضب المكبوت الذي سينفجر فجر أول نوفمبر 1954م، حيث أكد " المؤرخ "الزبيري محمد العربي" في هذا الصدد قائلا:

«.. انذلعت ثورة أول نوفمبر والأغلبية الساحقة من الجزائريين لا تعرف الطبيب أو المستشفى أو المستوصف، ولا تستعمل الأدوية... »(24)

ولهذا لا نستغرب أن يكون الوضع الصحي أهم الميادين التي ستوليها الثورة الجزائرية أهمية كبرى انطلاقا من تعميم التطبيق الصارم للإجراءات الوقاية والنظافة العامة، إلى الاهتمام بالتنظيم الصحي وتعميمه على كامل التراب الوطني (25)، بحيث أصبح الطب والثورة يتواجدان في وقت معا، وأصبح الطبيب الوطني في المنظور الشعبي " طبيب - نا " وحكيم – نا – بعدما تعمقت الثقة الثورية ، ونجحت جبهة التحرير الوطني في توظيف مبدأ الثقة لتعميم شعبية التنظيم الصحي الثوري(26)، والاهتمام بالتكوين والتدريب المهني الطبي والشبه الطبي بالاعتماد على الذات وخاصة في القواعد الخلفية الغربية والشرقية، إلى جانب الدعم العربي(27).

الإحالات

[1]-Gouvernement général de l'Algérie; Direction générale des Finances – Service de Statistiques Générale – Annuaire statistique de l'Algérie; septième volume; Alger 1954.

2-Levi – Valencien (A); La Tuberculose en Algérie et son destin; Alger Med № 11 Novembre 1953; p:968

3-Horn(Alistair), Histoire de la guerre d'Algérie, Ed: Albin Michel, Paris 1977, p: 61

4-الشيخ (سليمان)، الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين – دراسة تحليلية في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة- ترجمة محمد حافظ الجمالي، الدار المصرية اللبنانية بإذن من القصبة، الجزائر 2003، ص. ص: 8-9

- هنري كلود، لاكوست إيف، برونان أندري، الاستعمار الفرنسي في المغرب5 العربي، ترجمة عينالي محمد ، بيروت، بدون تاريخ، ص. ص: 74-78

-نذكر من هذه الشركات على سبيل المثال لا الحصر:

Union Parisien Merabaud
Banque industrielle de l'Afrique du Nord.
L'Union des mines .
- بوعزيز (يحيى)، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية6
(1830-1954) ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1985، ص.ص: -63-64
Amir (Mohamed); Contribution à l'étude de l'histoire 7
de la santé en [7] Algérie autour d'une expérience en A.L.N willaya 5 – Réflexions sur
son développement; O.P.U. ; Alger 1986; p: 78
-Gouvernement général de l'Algérie; Op cité ; pp: 55-66 8
-Aron (Robert), Les origines de la guerre d'Algérie, 9
Fayard, Paris1962, p: 217
- Khiati (Mostafa), Histoire de la médecine en Algérie 10
de l'antiquité à nos jours, Ed: A.N.E.P., Alger 2000, p: 231
Turin Yvonne; Affrontement culturelle dans l'Algérie 11
Coloniale, Maspero; Paris 1971; pp: 342-354
12- فانون (فرانز)، معذبو الأرض، ترجمة الدروبي سامي والأتاسي جمال،
منشورات أنيب عن دار الفارابي، لبنان 2004 ، ، جون بول سارتر
في تقديمه للكتاب ، ص: 2
13- فانون (فرانز)، العام الخامس للثورة الجزائرية، ترجمة دوقان قرقوط،
دار الفارابي، لبنان 2004 ، ص.ص: 129-130
14- الزبيري (محمد العربي)، الثورة الجزائرية في عامها الأول،
المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص: 47
- Nouschi (André), La naissance du nationalisme Algérien 15
(1914-1954), Ed: Minuit, Paris sans date, p: 110
16 - بوعزيز (يحيى)، مرجع سابق، ص: 64
- Egreteau (M); Réalité de la nation Algérienne; Ed: sociales 17
Paris 1957; p: 135
18-الشيخ (سليمان)، مرجع سابق، ص: 208 عن (R) Barbel ، حقائق حول
الجزائر الاقتصادية والسياسية في جانفي 1945م، ص. ص:
-Levi – Valencien (A); Op cité, p:968 19
Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemporaine 20T 2, PUF, Paris
1979, pp: 485-4494
Miquel (Pierre), La guerre d'Algérie, 21
Fayard, Paris1995, pp: 39-71
22- طلاس (مصطفى) و العسلي (إبراهيم)، الثورة الجزائرية،
طلاس للدراسات والنشر، دمشق 1984، ص. ص: 63-73
Gouvernement général de l'Algérie; Op cité ; pp: 50 et-62 23
- يحيى (جلال)، السياسة الفرنسية في الجزائر من (1830-إلى1960)، 24
دار المعرفة، القاهرة 1959، ص: 332
25- الزبيري (محمد العربي)، مرجع سابق، ص:47
Guentari (Mohamed); Organisation politico- Administrative 26
et militaire de la révolution Algérienne (1954-1962);
O.P.U. Alger2000; pp: 289-198
- فرانز (فانون) ، العام الخامس للثورة، مصدر سابق، ص. ص: 153-27154
- الديب (فتحي)، عبد الناصر وثورة الجزائر،28
دار المستقبل العربي، القاهرة 1984، ص. ص: 368-369